ISSN: 2737-8152

مجلة القانون و المجتمع

دورية علمية محكمة و مفهرسة، تعنى با لدراسات الاجتماعية و القانونية و الاقتصادية، تصدر عن معهد الدراسات الاجتماعية و الإعلامية.

العدد 12، السنة الرابعة، الفصل الأول 2024

رشيد الأمين و اشريف مزور

النزعة الإنسانية القانونية: مسارات دلالية وتداولية

REVUE
DROIT & SOCIETE
مجلة
القانون و المجتمع
دورية علمية محكمة تعنى با لدراسات و الأبحاث في المجال القانوني و الاجتماعي و الاقتصادي.
PERIODIQUE SCIENTIFIQUE A COMITE DE LECTURE, CONSACRE A LA PUBLICATION D'ETUDES ET DE RECHERCHES DANS LES DOMAINES JURIDIQUE, ECONOMIQUE ET SOCIAL

معرف الغرض الرقمي: 10.5281/zenodo.10648021 العدد الثاني عشر السنة الرابعة / يناير مارس 2024

النزعة الإنسانية القانونية : مسارات دلالية وتداولية

LEGAL HUMANISM: SEMANTIC AND PRAGMATICTRAJECTORIES

رشيد الأمين
استاذ باحث
كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، المغرب

اشريف مزور
باحث في الفلسفة
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية،
جامعة بن طفيل، القنيطرة المغرب

مجلة القانون و المجتمع
العدد 12، السنة الرابعة، الفصل الأول سنة 2024

CC BY

الأمين, . رشيد ., & اشريف, . مزور . (2024). النزعة الإنسانية القانونية: مسارات دلالية وتداولية. مجلة القانون و المجتمع, 4(12), 72-93.
https://doi.org/10.5281/zenodo.10648021

النزعة الإنسانية القانونية: مسارات دلالية وتداولية

مجلة القانون و المجتمع
العدد 12، السنة الرابعة، الفصل الأول سنة 2024

رشيد الأمين
استاذ باحث
كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، المغرب

اشريف مزور
باحث في الفلسفة
كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة بن طفيل،
القنيطرة المغرب

الملخـص:

يحاول هذا المقال التأصيل لمفهوم النزعة الإنسانية القانونية من خلال كشف دلالاته المتنوعة ومساراته التداولية، وذلك باتخاذ الفكر الفلسفي فرشا نظريا من شأنه توفير أرضية مناسبة لتتبع تطور هذا المفهوم على المستوى القانوني الدولي. من الناحية المنهجية، يقوم المقال على مسلمة ضمنية تقضي بأن استقصاء ذات المفهوم (النزعة الإنسانية) انطلاقا من مجالين أوفى بإدراك أبعاده وأيسر، مثلما تؤكد على ذلك فلسفة التعقيد كما ارتضاها إدغار موران .E.Morin غير أن تلاقح الفلسفة مع القانون في توضيح مسارات مفهوم النزعة الإنسانية القانونية لا يدل بالضرورة على

ردمد : 8152 – 2737
معهد الدراسات الاجتماعية و الاعلامية

استنساخ المفهوم بكل مقوماته وعناصره التأسيسية فلسفيا؛ فانتقال مفهوم ما من "مجال تداولي" إلى آخر، غالبا ما يرتبط بتحول المعاني، ما دامت "القوة التداولية" قد تغيرت. يبين المقال كيف ارتاب رواد النزعة الإنسانية أول الأمر في الحماية التي يوفرها القانون للإنسانية، قبل أن ينظر للقانون الدولي كأداة لا غنى عنها لهذه الحماية، انطلاقا من استيعابه لمفهوم النزعة الإنسانية، ولكن عبر مناظير دلالية مختلفة باختلاف تداوله في فروع القانون الدولي. لنكون بحق أمام نزعة إنسانية قانونية دائمة الاغتناء والتجدد.

كلمات مفتاحية: *النزعة الإنسانية القانونية، الحماية القانونية للإنسانية، دلالات مفهوم الإنسانية، وتداول مفهوم الإنسانية، القانون، الفلسفية.*

مجلة القانون و المجتمع
العدد 12، السنة الرابعة، الفصل الأول سنة 2024

LEGAL HUMANISM: SEMANTIC AND PRAGMATICTRAJECTORIES

ABSTRACT

This article endeavors to substantiate the concept of legal humanism by elucidating its multifaceted connotations and dynamic trajectories. It employs philosophical inquiry as a theoretical scaffold, offering a conducive framework to trace the evolution of this concept within the realm of international law. Methodologically, the study operates on an implicit premise positing that an exhaustive exploration of the concept of humanism is best achieved by considering two comprehensive perspectives, thereby enhancing our understanding of its dimensions. This approach aligns with the philosophy of complexity, as advocated by E. Morin. The integration of philosophy with law, elucidating the pathways of legal humanism, does not necessarily signify a wholesale reproduction of the concept, encompassing all its philosophical constituents and foundational elements. The migration of the concept from one "sphere of discourse" to another is often associated with shifts in meaning, contingent upon alterations in the "transactional dynamics." The article shows how the pioneers of humanism initially questioned the protection accorded by law to humanity before reconciling their perspectives, ultimately designating international law as an indispensable instrument for safeguarding humanity. This transformation is rooted in its nuanced grasp of the concept of humanism, viewed through distinct semantic lenses across various branches of international law. This study posits that we are indeed confronted with a perpetually evolving and renewing legal humanistic inclination.

Rachid ELAMINE

Lecturer and researcher

Sidi Mohamed Ben Abdellah University, Fez, Morocco

Chrif MEZOUR

PhD Student

Ibn Tofail University, Kenitra , Morocco

Keywords: legal humanism - legal protection of humanity - connotations and circulation of the concept of humanity between law and philosophy.

مقدمة

إن أي نسق معرفي لا يستطيع أن يعرف من الداخل تعريفا ذاتيا، فكل نسق، بما فيه القانون مثلا، يجد بالضرورة معناه ومعايير صلاحيته خارج نفسه. ومتى طبقنا هذه القاعدة على القانون الدولي، وتحديدا على مفهوم الإنسانية منه، تأكدت مصداقيتها؛ فعند النظر إلى كثير من النصوص القانونية الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، نجدها محمولة على الإنسانية وحاملة لها في نفس الوقت، لكن دون الظفر بدلالة واحدة ومستقرة لهذا المفهوم، وهو ما حدا بالدارسين إلى الانفتاح بهذا الخصوص على مجالات معرفية أخرى لعل أهمها الفكر الفلسفي. إن رصد مفهوم الإنسانية في مظانه الأصلية جزء أساسي من مهمة تتبع مشكلاته الدلالية ومساراته التداولية على مستوى القانون الدولي.

علاوة على الأصول الفكرية للمفهوم، فإن الدخول إلى "عصر الإنسانية"، كما يؤكد على ذلك روني دبوي، "كان تراجيديا"، فتأكيد مواثيق حقوق الإنسان على عمق "الروابط الإنسانية" و"المشترك الإنساني" ووحدة "الأسرة الإنسانية"...، ليست في الحقيقة سوى محاولة لتجاوز الواقع المرير الذي يؤكد على "عمق الصدامات البشرية"[1].

من الناحية التاريخية، ارتبطت الإنسانية "كمفهوم قانوني" بما شهدته سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية من تطور هام للمجتمع الدولي وللنظام القانوني الذي يحكمه؛ فقد أدت تصفية الاستعمار إلى تزايد عدد أعضاء المجتمع الدولي، مما أثر على الصيغة التقليدية القائلة بأن العلاقات الدولية ليست سوى علاقات بين الدول[2]. بدأت فكرة الإنسانية في الظهور لتلج، بعد ذلك، معظم فروع القانون الدولي، وأعطيت لها مضامين متميزة، وهو ما جعل -في نظر البعض- البعد البيني للقانون الدولي ينتمي إلى الماضي؛ فقد أدى الوعي المتنامي بالحاجة إلى وضع "القيم المشتركة" في الاعتبار لتحقيق "المصالح المشتركة"، إلى "تغيير جذري" في نظرة القانون الدولي في العقود الأخيرة[3].

والواقع أن ولوج الإنسانية (كمفهوم) إلى حقل القانون الدولي كان قبل الحرب العالمية الثانية، حيث أصبحت "موضوعا" للقانون الوضعي[4]، ولكنها أخذت في التطور بشكل لافت منذ الستينيات، لتصبح بعدها، مفهوما عرضانيا يلامس ويخترق الكثير من فروعه.

---

[1]- Florian Aumond, "l'humanité dans l'œuvre de René-Jean-Dupuy", *Droits fondamentaux*, n° 5, janvier-décembre, 2005, p.9.

[2]- محمد سعيد الدقاق، حول مبدأ التراث المشترك للإنسانية: دراسة على ضوء معاهدة الأمم المتحدة لقانون البحار سنة 1982، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، 1982، الطبعة الأولى، ص.35.

[3]- Antônio Augusto Cançado Trindade, International Law for Humankind - Towards a New Jus Gentium, The Hague Academy of International Law Monographs, Volume 6, MartinusNijhoufPublishers, 2010.p.3-4.

[4]-Catherine Le Bris, "Le projet de déclaration universelle des droits de l'humanité de 2015: implications et perspectives juridiques", La Revue des droits de l'homme, N°10,2016 <https://revdh.revues.org/2214> (vu le 12/01/2017), p.7.

ونظرا لتعدد الفروع القانونية التي اهتمت بالحماية الإنسانية، فقد خصصنا هذه الورقة لدراسة بعض الأصول الفلسفية لمفهوم "النزعة الإنسانية القانونية"، كما اعتمدت في القانون الدولي. إذا كان يبدو مفهوم "الإنسانية" من المفاهيم الواضحة، فإن اشتهار كلمة (إنسانية) وتكرارها، من شأنه أن يحجب ويعوق التحديد الدلالي لهذا المفهوم الواسع الذي "اهترأ من كثرة الاستعمال"[5]. وما دامت الإنسانية قد عبرت من مجال الفكر الفلسفي إلى دائرة القانون والسياسة الدوليين، فإنه يجدر بنا الوقوف عند تحولات هذا المفهوم عبر تاريخ الفلسفة (**المطلب الأول**)، قبل عرض مآلات وآثار انتقاله وتكريسه في القانون الدولي (**المطلب الثاني**).

المطلب الأول: الإنسانية مفهوم فلسفي أخلاقي

لا مراء في أن مفهوم الإنسانية اغتنى دلاليا عبر مختلف مراحل تطور الفكر الفلسفي. وعادة ما تم ربطه بمفهوم آخر أشد غموضا هو مفهوم الإنسان، فلا يتعلق الأمر بإدراك معنى العالم من حولنا فحسب، بل أيضا بإدراك ذواتنا؛ فعندما نسأل ما الإنسان؟ لا نكاد نحصل على إجابة واضحة، بل تنقلنا كل إجابة إلى سؤال أشد عمقا.

وربما هذا ما جعل ريمي براغ يشير إلى أن تاريخ الفلسفة عرف "إنسانيات" مختلفة[6]؛ مميزا بين "الإنسانية اليونانية" (الفرع الأول)، و"النزعة الإنسانية" النهضوية والحديثة، وما لحقهما من تطوير مع "الإنسانية المعاصرة"(الفرع الثاني).

الفرع الأول: البيان المعجمي والجذور الفكرية القديمة

تزداد أهمية التحليل المعجمي (الفقرة الأولى) بالنسبة لموضوعنا، لكون مادة الإنسانية من الاصطلاحات النادرة التي تثير معانيها واستعمالاتها التباسا في الأذهان، خصوصا عندما تقترن بوصف يربطها بجنس معين دون غيره أو بمعارف محددة كالإنسانيات الأدبية والإنسانيات الفلسفية...إلى جانب ذلك تعتبر اللحظة اليونانية (الفقرة الثانية) تأسيسية للفكر الفلسفي ولمفهوم الإنسانية، حيث كان لها شديد التأثير على العصور اللاحقة.

الفقرة الأولى: البيان المعجمي

استخدم مصطلح الإنسانية بمعان معجمية مختلفة، تؤول في اشتقاقاتها اللغوية إلى أصل واحد يضمها جميعا هو الإنسان.

تكاد **المعاجم العربية القديمة** تخلو من أي ذكر للفظ الإنسانية، وتستخدم بدلا من ذلك لفظ الإنسان؛ فابن منظور يقرر في مادة أنس أن: "الإنسان: معروف"؛ "والجمع الناس، مذكر؛ وقد يؤنث على معنى القبيلة أو الطائفة". كما قد

[5]- يوسف زيدان، "إعادة بناء مفهوم الإنسانية"، *جريدة المصري اليوم*، عدد 4461، الثلاثاء 30 غشت 2016،
< http://www.almasryalyoum.com/news/details/100198 >
(تمت زيارته بتاريخ 10/01/2017)، ص.3.

[6]- Rémi Brague, Le propre de l'homme: sur une légitimité menacée, Flammarion, Paris, 2013. p.12.

يطلق على الكافر وحده، أو على قبيلة دون غيرها؛ بل "ويقال للمرأة أيضا إنسان"[7]. وإنما سمي الإنسان إنساناً لأنه عهد إليه فَنَسِيَ، وكلما تأملنا أحوال الإنسان... لم نزدد إلا يقينا "بأنه لا كائن أنسى منه..."[8].

أما في **المعاجم العربية المعاصرة**، فيتحدد مصطلح الإنسانية بمعان مختلفة:

- الإنسانية مصدر صناعي من إنسان، وتدل على: "مجموع خصائص الجنس البشري"[9]، كما نقصد بها "البشرية" أو "الجنس البشري"[10].
- الإنسانية كسلوك عملي يصف مجهودات شخص أو منظمة للتخفيف من المعاناة، لذلك نقول "عمل إنساني" و"ضمير إنساني"[11].
- تدل الإنسانية كذلك على الشعور بأن الإنسان واحد رغم كل الاختلافات الثقافية والعرقية. وهو ما شدد عليه أبو حيان التوحيدي باعتباره أحد المؤسسين للنزعة الإنسانية[12].

أما **المعاجم الأجنبية** فتورد مفهوم الإنسانية في نفس سياق الحديث عن "النزعة الإنسانية" لأن مناطق التداخل والتخوم كبيرة بين المعنيين؛ فالصيغ التالية: الإنسانوية Humanitarisme والإنسانوي Humanitariste والإنسانية Humanité، تطلق على عدة نواح من خصائص الفكر والنشاط الإنساني الهادف إلى تنظيم حياة الإنسان وتطلعاته ضمن حدود الحرية والمساواة والإخاء الإنساني[13].

ومن بين المعاني التي ترد في المعاجم الأجنبية لشرح مفهوم الإنسانية نجد:

- الإنسانية منظورا إليها **كخصائص تميز الجنس البشري**؛ فتدل على مجموعة من السمات التي تجعل كائنا حيا ينتمي إلى الجنس البشري؛ أي مجموع الصفات الخاصة بالطبيعة الإنسانية[14]، وتدل أيضا

[7]- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1998، ص. 147.

[8]- طه عبد الرحمان، روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2012، ص. 13.

[9]- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم العربي الأساسي، مطابع أمبريمتو، بيروت، لبنان، 1991، ص. 114.

[10]- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، القاهرة، 2004، ص.30.

[11]- جبران مسعود، الرائد معجم لغوي عصري، دار الملايين للعلم، بيروت، الطبعة السابعة، 1992.

[12]- محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي: جيل مسكويه والتوحيدي، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2006، ص.14.

[13]- مصطفى حنفي، النزعة الإنسانية وإرث الأنوار، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2014، ص.19.

[14]- Le Centre National des Ressources Textuelles et Lexicales, <http://www.cnrtl.fr/lexicographie/humanit%C3%A9> (vu le 23/09/2016)

على "مجموعة المزايا التي يشترك فيها الناس"[15].

- **الإنسانية بمعنى التعاطف**، وترتبط بالسلوك الجيد للإنسان، لذلك فالأعمال **البربرية** تعتبر ضد الإنسانية؛ إن الإنسانية بهذا المعنى هي "ميزة أن تكون بشرا أو إنسانا"[16].
- **الإنسانية كمذهب أو تيار** يشير إلى: "الحركة الفكرية التي...أعادت الفكر النقدي والتأهيل الذاتي وصياغة تصور جديد عن الجمال والفن"[17].

ينتهي بنا تتبع المعاني المعجمية للكلمة إلى تصورات عامة ومجردة لمفهوم الإنسانية وتغفل جانبا مهما من مضمونها الفلسفي والنظري.

الفقرة الثانية: الجذور الفكرية القديمة للإنسانية

إن الفكر البشري "يخشى الفراغ"، فلا يقبل ببداية لا شيء من ورائها، ومفهوم الإنسانية لا يخرج عن هذا الإطار؛ إذ لبناء الإنسان الحديث كان لابد من العودة إلى الماضي لاستيعابه وتملكه ومن ثم تجاوزه، فالقطيعة لا تمارس مع الخواء لكن مع ما نعرفه[18]، لذلك فالمفاهيم المعاصرة للإنسانية ذات أصول في التراث الفكري القديم، حيث تم ربط فكرة تكوين الإنسان بالأصول اليونانية والرومانية.

يعتبر ريمي براغ أن اللحظة اليونانية تعتبر لحظة تأسيسية للإنسانية؛ فكل "الإنسانيات" اللاحقة قد اغترفت منها بمقدار كبير، بل إن قياس المنعطف الإنساني اليوم يتم باتخاذ المفهوم اليوناني مرجعا وأصلا ينحرف عنه غيره أو يتماهى معه، ويسمي هذه المرحلة من النظر إلى الإنسانية بمرحلة "الاختلاف" أو "المغايرة"، حيث تم تصور الإنسان باعتباره ينتمي إلى نوع مميز جوهريا عن باقي الأنواع بسبب توفره على صفات حصرية؛ فالإنسان يتميز عن الحيوان اللذان طالما عدتهما الأساطير القديمة متداخلان[19].

تميز تصور الإغريق القدماء لمفهوم لإنسان، بأصالة فائقة، لأنه ينطوي على نظرة متحررة من اللاهوت، فقد أخذوا مصيرهم بيدهم، وجعلوه مسألة إنسانية، دون أن تكون لليوناني "نزعة إنسانية نظرية منظمة"، لأنه كان يخلقها ويمارسها على الأرض[20]؛ فليس هناك عالم ما ورائي يختص به "الواجدون" بعيدا عن الإنسان،

---

[15]- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني، تعريب خليل أحمد خليل، إشراف أحمد عويدات، منشورات عويدات، باريس، الطبعة الثانية، 2001، ص.571.

[16]- Robin Coupland, "Humanity: what is it and how doesit influence international law?", *International Review of the Red Cross*, Vol.83,N°844, December2001, p.972.

[17]- Le grand Larousse de la langue Française, pp.24-37. <http://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k12005345>

[18]- محمد عابد الجابري، في نقد الحاجة إلى الإصلاح، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، شتنبر 2005، ص ص. 142-141.

[19]- Rémi Brague, le propre de l'homme, op.cit. p.12.

[20]- أحمد الطريبق، نقد فلسفة الحداثة، مرجع سابق، ص. 26

لدرجة أن العلاقة بين الآلهة والإنسان كانت قوية لحد التزاوج والتوالد[21].

إلا أن أرسطو أعطى حكما ملتبسا لمكانة الإنسان، فإذا كان صحيحا أن الإنسان هو الأفضل من بين الكائنات الحية الأخرى، فإنه ليس الأفضل في الكوسموس، حيث إن عالم "ما فوق القمر" يتضمن موجودات ذات طبيعة أكثر قداسة من الإنسان، "فالأجرام السماوية أعلى رتبة ومقاما من الإنسان" الذي ينتمي إلى عالم ما تحت القمر "عالم الفساد واللانظام"[22]. من هنا فإن أفلاطون وأرسطو، وفي إطار محاكاة عالم الطبيعة، بما هو عالم تراتبي يعلو بعضه فوق بعض، جعلا عالم الناس أيضا تراتبيا، حيث ينبغي "إنزال الناس منازلهم" حتى يحتفظ الكوسموس بنظامه التراتبي المتناغم وإلا دخل في فوضى[23]. من ثمة، **فالإنسانية اليونانية تراتبية**، بحكم أن التنظير السياسي الإغريقي يقوم على رفع الطبيعة إلى مستوى المثال السياسي Politisation de la nature.

والثابت أن لليونان الفضل في تقديم أهم التعاريف لـ"الإنساني" والتي وضعت خاصيتين أساسيتين للإنسان يختلف بهما عما سواه: الأولى هي اللوغوس Logos أو العقل أو اللغة؛ وقد عرفت الإنسان بكونه **"حيوانا عاقلا"**، والثانية هي الحياة في المدينة، والتي عرفته بكونه **"حيوانا سياسيا"**.

انطلاقا مما سبق، ظل الإنسان مركز الكون عند الإغريق، لكن ليس أي إنسان، وليس العامة من النساء والعبيد والحرفيين...، وإنما الإنسان العاقل والأقدر على المعقولية، وبذلك، يجوز القول بأن الإنسانية عند الفلاسفة اليونان، تؤول إلى الفكر والعقل(الحياة التأملية) والقدرة على تدبير الحياة وفق منطق عملي متوازن(الحياة النشيطة). وما دام اليونانيون أقدر من غيرهم! على استخدام العقل واتباع مقولات المنطق، فإن الإنسانية تختزل فيهم لأنهم أهل الحضارة والباقي برابرة!...

لقد أثرت تصورات الفلسفة اليونانية للإنسان، على أفكار النظار في كل العصور اللاحقة، خاصة بعدما امتزج الفكر الديني بالفلسفة اليونانية، مما ساهم في بلورة منظور جديد للإنسان. وعموما فالحديث عن الإنسان مثلا في التقاليد الفكرية العربية/الإسلامية دائر بين أمرين: إما هو حديث استعجاب من شأنه: "إني وجدت الإنسان أمرا عجيبا" (يحيى بن معاذ)، ومن هنا قول المفكر النهضوي الايطالي بيك دو لاميرندولا: "قرأت في كتب العرب أن لا شيء أروع من الإنسان يمكن أن يرى في الكون". وإما هو حديث استشكالي لأمره: "إن الإنسان قد أشكل عليه الإنسان" (أبو حيان التوحيدي)[24]...

[21]- Jean Pierre Vernant, Mythe et Société en Grèce Ancienne, François Maspero, Paris, 1974, p. 94

[22]- Rémi Brague, le propre de l'homme,Op.Cit,p.16.

[23]- أفلاطون،الجمهورية، ترجمة فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2004، ص ص. 138-145.

[24]- محمد الشيخ، "في طبيعة البشر، المجادلة بين هابرماسوسلوترديك"، في فلسفة الحق عند هابرماس، تنسيق محمد المصباحي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة

الفرع الثاني: مفهوم الإنسانية في الفلسفة الحديثة والمعاصرة

لم تكن العودة إلى الفلسفة لتجذير مفهوم الإنسانية ميلا ذاتيا، بل فرضه مفهوم آخر ذو صلة وخصوبة في الحقل الدولي وهو مفهوم "النزعة الإنسانية"[25]، الذي ارتبط في البداية بالمهمة المطروحة على عصر النهضة، حيث دعا الإنسانيون إلى العودة للتراث اليوناني القديم علوما وفلسفة وفنونا وأدبا، مما جعل حقيقة الإنسان خالصة ومنسجمة، أي قائمة على سيادة عنصر الإنساني فيها بوصفها ماهية البشر.

يعد هذا المنعطف النهضوي (الفقرة الأولى) في إبراز مفهوم الإنسانية والإعلاء من شأن الإنسان، تأسيسيا بالنسبة للمنظور الحداثي للإنسانية (الفقرة الثانية). غير أن كثيرا من مآلات الحداثة وربما انحرافاتها التطبيقية ساعدت في مراجعة مقومات النظر للإنسانية، وهو ما أثمر عن "نزعة إنسانية جديدة" جاد بها مفكرون معاصرون (الفقرة الثالثة).

الفقرة الأولى: النزعة الإنسانية في عصر النهضة

يمكن أن نحصر دلالات النزعة الإنسانية Humanisme في مستويين:

- **دلالة تربوية**: نجدها عند أوائل الإنسانيين الذين كانوا يعتقدون أنه "بتدريس الثقافة الموروثة عن القدامى كان ممكنا تحقيق النموذج الإنساني"[26]، حيث إن " الإنسان لا يولد إنسانا بل يصير كذلك"[27].

- **دلالة تاريخية**: تشير النزعة الإنسانية إلى حركة فكرية ثقافية ميزت عصر النهضة، وفتحت الطريق لتغيير النظرة إلى العالم وبناء صورة جديدة للإنسان[28]، وتستغرق هذه الحركة كل المجالات (أدبية، علمية، سياسية، فنية...)، مما يشي باعتبارها أول نسق إيديولوجي -محوره الإنسان- متمرد على ثقافة القرون الوسطى اللاهوتية الممارسة للتراتبية الاجتماعية والدينية[29].

ندوات ومحاضرات، رقم:156، الرباط،الطبعة الأولى، 2008، ص ص. 39-60،ص.39 .

[25]- ايرينا بوكوفا، "افتتاحية"، في "النزعة الإنسانية، فكر متجدد دائما"، *مجلة رسالة اليونيسكو*، العدد الرابع، أكتوبر-دجنبر 2011، ص.3.

[26]- Marie Dominique Le Grand, Lire l'humanisme, Danod, Paris, 1993, p.10.

[27]- عبد الرزاق الدواي، "حول إشكالية مصطلح النزعة الإنسانية"، في: "المصطلح في الفلسفة والعلوم الإنسانية" منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 42، الرباط، الطبعة الأولى، 1995، ص. 62.

28 -Jean Claude Margolin, l'humanisme au temps de la renaissance, PUF, Paris, 1981, p. 8.

[29]- عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دارالطليعة،دون طبعة،دون تاريخ نشر،بيروت،لبنان، ص. 107.

مجلة القانون و المجتمع
العدد 12، السنة الرابعة، الفصل الأول سنة 2024

يمكن التمييز، داخل عصر النهضة، بين طريقتين لإبراز تفوق الإنسان[30]: الأولى، ترجع تفوق الإنسان إلى محاولاته لتحقيق رغبة الطبيعة، التي ازدانت حلة وارتفعت مقاما بفعل نجاحات الإنسان الذي غدا يقترب شيئا فشيئا من عنان السماء، ويلامس الكائنات العلوية. والثانية، ترجع تفوق الإنسان إلى هبة ربانية وليست مسألة استحقاق من قبل الإنسان، وهو ما يجعل سمو الإنسان مسألة نسبية، لكن دون أن يمنع ذلك من الارتفاع بمكانته إلى مرتبة الإله (حالة المسيح) أو النزول بالإله إلى رتبة الإنسان (بعض التيارات اليهودية)[31].

أضاف عصر النهضة إذن، تثمينا لصالح الإنسان، فأصبح أفضل من باقي الأنواع الحية الأخرى، دون أن يعني ذلك العبور من التفوق إلى الأفضلية المطلقة؛ فلم يكن يعتبر كأفضل المخلوقات (le meilleur être) إلى حدود النهضة[32]، وهو ما يجعله مختلفا عن الإنسان كما نظرت إليه الحداثة.

الفقرة الثانية: الإنسانية الحديثة

انطلقت مرحلة جديدة للنظر إلى الإنسان (يسميها براغ بمرحلة: "اجتياح الطبيعة") في القرن السابع عشر، بدا معها الإنسان وكأنه الكائن الذي ينبغي عليه الهيمنة على الكائنات الأخرى، وفرض قوانينه الخاصة على الطبيعة لتطويعها، هكذا صار تفوق الإنسان نتيجة لنشاط إنساني محض يحقق بمقتضاه تفوقه ليصبح عن جدارة واستحقاق سيد الطبيعة.

تجسدت هذه الرؤية مع فرانسيس بيكون: "الإنسان سيد ومالك للطبيعة"، الذي حاول أن يصحح أحد نتائج الخطيئة الأصلية التي تجلت في فقدان تحكم الإنسانية في باقي المخلوقات، فدعا، بالمقابل، إلى التخفيف من معاناة الإنسان عن طريق تطبيق العلوم خاصة المنهج التجريبي على الطبيعة. وبرزت أكثر مع الثورة الديكارتية التي ربطت التفكير بالأنا الفردية ذات المرتكز العقلاني، بشكل لم يعد معه من الممكن التفكير في نقطة مطلقة يتواطأ عليها الجميع[33].

تترتب عن هذه الرؤية مسألتان على الأقل:

- اختزال كل الإنسانية في الأنا الفردية المفكرة، ويعني ذلك أن الحقوق ينبغي أن تعطى للإنسان كفرد مستقل عن غيره (حرية التصويت، حرية الانتقاد، حرية الاعتقاد..)، دون تمييز على أي أساس مادي كالعرق أو اللون أو الدين، فالعقل جوهر ميتافيزيقي متعال عن المادة، وما دام أعدل الأشياء قسمة بين الناس، فهم جميعا متساوون.

- الفصل بين الفكر والمادة، وإخضاع الثانية للأول؛ فلم تعد الطبيعة ذلك الوجود الحي المليء بالألغاز؛ بل غدت "مكتوبة بحروف رياضية"، ينبغي كشفها من أجل إحكام السيطرة على باقي

[30]- Rémi Brague, le propre de l'homme, Op.Cit. p.17-18.

[31]- يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، يناير 2010، ص ص.53-62.

[32]- Rémi Brague, le propre de l'homme, Op.Cit, p.16.

[33] - محمد المصباحي، من أجل حداثة متعددة الأصوات، مرجع سابق، ص. 168.

الموجودات وجعلها مطواعة في يد الإنسان، وهذا ما مكنه من تحرير العلم من الخرافات في أفق بناء "العلم الحديث" بشكل عقلاني، دون ترك أي مجال للخوارق التي لا زالت مجتمعات كثيرة تظن أن لها فعلا في العالم[34].

غير أن إيمانويل كانط، لم يقتنع كثيرا بربط الإنسان المفكر بالوجود وحده، فعمل على ترجمة الوجود بالفعل عن طريق العقل العملي. وقد مكنه هذا التحويل لـ"الأنا أفكر" من مجال "العقل النظري" إلى مجال "العقل العملي"، من صياغة المبدأ التنويري القائل: "**كن كل الإنسانية في نفسك**"[35]، محملا الفرد وحده مسؤولية وجوده وفعله، "إذ يتعين على كل فرد إنساني الأخذ بها متى أراد الاستقامة في سلوكه أو طلب السعادة في حياته"[36].

لكن، يجب ألا نخلط بين "الإنسانية" وبين المفهوم التجريبي للنوع الطبيعي؛ فالذي ينتحر، مثلا، يضحي بنفسه من أجل أن يتخلص من مشاكل الحياة، وبذلك فهو لم يعامل الإنسانية التي يحملها في ذاته (كإنسان) كغاية، وإنما استخدمها كوسيلة، وقس على ذلك في حالة الاعتداء على الغير أو إذلاله أو تعذيبه[37].

إن الإنسانية عند كانط هي الكرامة التي تبنى بمنطق العقل العملي، وليست معطاة بشكل تجريبي؛ فلا يكفي أن نعرف الإنسان بأنه عاقل، بل ينبغي تحقيقه، فننتقل من المنطق أو التعريف: "الإنسان حيوان عاقل"، إلى حقل الأخلاق والسلوك، وهنا يتحدث كانط عن الإنسان كغاية في ذاته، أي كفرد له كرامة يجب احترامها بشكل غير مشروط. أما على مستوى ثان، فيتحدث عن الإنسان كغاية وهو عضو في "مجتمع"، بل وفي "مملكة الغايات"، ويصبح تشريعه الفردي قابلا لأن يكون قاعدة كلية تنطبق على الإنسانية جمعاء[38].

باسم الإنسانية وكرامة الإنسان التي لا ينبغي تسليعها، نحقق مملكة الغايات، أي مجتمعا تتعايش فيه كائنات عاقلة، بموجب واجبات أخلاقية تحترم وتنفذ لأنها كذلك وفقط، من دون النظر إلى ما تحققه من منافع، ذلك أن العقل الأخلاقي (منطق السلوك) ليس حسابيا كالعقل النظري (منطق المعرفة). يغدو الإنسان/الفرد متى التفت لحريته وتجرأ على استخدام عقله، مصدرا للتشريع الأخلاقي لنفسه ولكل الإنسانية، شرط إيقاف الوصاية على الفرد ومنع أي تدخل للغير للفعل باسمه مهما

[34]- صالح هاشم، مخاضات الحداثة التنويرية- القطيعة الإبستمولوجية في الفكر والحياة، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2008، ص ص. 38-50.

[35]- محمد المصباحي، من أجل حداثة متعددة الأصوات، مرجع سابق، ص.168.

[36]- طه عبد الرحمان، سؤال العمل، بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2012، ص.111.

[37]-Emanuel Kant, Idée d'une histoire universelle, les textes intégrales de Philo, présentation et commentaires Noëlla Baraquin, Jacqueline Laffitte, N° 30, éd NATHAN, Paris, 1994, p. 88

[38]- Ibidem.

كانت الحيثيات والظروف[39]. انتقل كانط إذن، من الإنسان العارف الذي قد ينحرف (وهو ما حدث فعلا مع عصر التقنية)، إلى الإنسان الأخلاقي الذي يتحمل التشريع للإنسانية جمعاء.

الفقرة الثانية : النزعات الإنسانية المعاصرة

إن الإعلاء من رتبة الإنسان وتخصيصه بالكرامة دون غيره من الموجودات، توازى مع رؤية رياضية وتقنية للكون، قادت إلى انحراف الرؤية الحديثة للإنسان عن مجراها الذي وضع لها أول الأمر، فكان من نتائج الثورة العلمية الحديثة تقدم صناعي لافت، تمخض عنه، من جهة، استغلال الإنسان للإنسان، ومن جهة ثانية، استنزاف موارد الطبيعة والبحث عن المواد الأولية اللازمة للتصنيع، وما ارتبط بذلك من استعمار، طالما رفع شعار تصدير الحضارة والعقلانية.

يرجع رواد مدرسة فرانكفورت (ماركيوز، أدورنو...) أسباب هذا الانحراف إلى "العقل الأداتي الحداثي"، ليجعلوا مهمة القرن العشرين مقصورة على توجيه النقد للحداثة، محاولين تصحيح مسارها... وقد صاحب ذلك ولادة نزعات إنسانية معاصرة، أعادت النظر في الإنسان والإنسانية والوجود. ومن أبرزها الوجودية عند سارتر.

احتفت الوجودية مع سارتر، بالحرية الإنسانية، فقد جاءت في وقت كان فيه العقل الفلسفي قد وصل ذروة الاهتمام بالموضوعية في مجال العلوم الدقيقة، بل حتى العلوم الإنسانية ذهبت في اتجاه دراسة الإنسان من زاوية الإكراهات التي يخضع لها، مما يسوغ لنا الحديث عن "نزعة إنسانية" في شكل وجودية يتبأر خطابها أساسا حول معنى الوجود الإنساني ومصيره وسعادته؛ أي أحقيته في تشكيل محيطه وفق معايير العقل، على اعتبار أن ذلك يدخل في باب الإمكان وليس في باب الاستحالة.

دافع سارتر عن الإنسان، في كل كتاباته الأدبية والفلسفية والسياسية، مقتنعا أنه في نهاية المطاف ليس أنا فقط ولا آخر فقط، الإنسان كما قاربه كل لا يتجزأ رغم التجزؤ الملازم لوجوده:"tout homme est tout l'homme ". يقول سارتر في هذا الصدد: "لا يمكن للوجود الإنساني أن يتلقى غاياته...من الخارج ولا من طبيعة داخلية مزعومة"[40]، ثم يضيف "ليست علاقة الوجود بالماهية لدى الإنسان مشابهة لما عليه عند أشياء العالم. تسبق الحرية الإنسانية ماهية الإنسان وتجعلها ممكنة، إن ماهية الإنسان معلقة داخل حريته"[41].

إن الحيوان بحسبه مسير بغريزة لا تخطئ وهي غريزة النوع، لذلك فهو محروم في آن معا من الحرية ومن القدرة على التحسن، أما الإنسان

[39]- ايمانويل كانط، ماهي الأنوار؟ ترجمة حميد لشهب <ما-هي-الأنوار؟-إيمانويل-كانط-ترجمة-حم/http://hekmah.org> (تمت زيارته بتاريخ:2015/06/3).

[40] -Jean P. Sartre, l'être et le néant, Gallimard, Paris, 1943, p. 121.

[41] -Ibid. p.560.

مجلة القانون و المجتمع
العدد 12، السنة الرابعة، الفصل الأول سنة 2024
ردمد : 8152 – 2737
معهد الدراسات الاجتماعية و الاعلامية

فيعرف بحريته وبقدرته على انتزاع نفسه من برنامج الغريزة الطبيعية، وعلى امتلاك تاريخ يتطور باستمرار، مما يجعله قادرا على الابتعاد عن كل القواعد التي تفرضها الطبيعة على الحيوان، "في الإنسان كما يقول روسو تتكلم الإرادة عندما تسكت الطبيعة. في الحيوان تتكلم الطبيعة دائما ولا تترك له أية حرية ليفعل شيئا آخر غير طاعتها"[42].

إن تجاوز الإنسان للبرامج الطبيعية يظهر إما في الشر المطلق (الشر كمشروع بينما وحشية الحيوان نابعة من غريزته) أو العطاء المدهش وهذه هي حريته، فإذا كان الإنسان حرا، فلا طبيعة إنسانية ولا جوهر إنساني، ولا تعريف للإنسانية يمكن أن يسبق أو يحدد وجوده؛ **"الوجود إذن يسبق الماهية"**. أما بالنسبة للحيوانات فلها جوهر مشترك لكل الجنس يسبق الوجود الفردي، فبرنامج الغريزة مشترك بين أفراد النوع يحدد وجود كل واحد منه من بدايته إلى نهايته.

جدير بالإشارة أنه من فكرة "وجود الإنسان يسبق ماهيته" برز نقد رائع للعنصرية وللتمييز بين الجنسين؛ تقضي العنصرية بأن هناك جوهرا خاصا بكل عرق وبكل جنس، وبأن الأفراد أسرى هذا المعطى البيولوجي جميعا، فيكون بحسب المتعصب كل عربي خاملا، وكل يهودي ذكيا... إننا أمام شخص مقتنع بأن أفراد ذات المجموعة يشتركون بذات الجوهر. الموقف ذاته يتكرر بالنسبة للتمييز بين الجنسين الذي يؤمن بأن المرأة من طبيعتها أن تكون حساسة أكثر منها ذكية. هاجم روسو هذا النوع من التفكير عندما بين بأنه ليس هناك طبيعة إنسانية ثابتة، أي برنامج طبيعي أو اجتماعي يمنع الإنسان من التحسن باستمرار، وهو نفس المشروع الذي استعاده سارتر فيما بعد، مؤكدا أن الإنسان يوجد فقط... وفق ما يريد... وليس شيئا آخر غير ما يفعله بذاته"[43].

انتقد سارتر النزعة الإنسانية الحداثية التي جعلت من الإنسان غاية وقيمة سامية، فهي بحسبه غامضة. إن الإنسان الوجودي لا يجعل من الإنسان إطلاقا غاية، لأنه دائما بصدد التحقق "وليس لنا أن نعتقد في وجود إنسانية يمكننا عبادتها على غرار ما فعل أوغست كونت. إن عبادة الإنسانية تؤول إلى المنزع الإنساني المغلق حول نفسه لدى كونت، وينبغي القول إنه يؤول إلى الفاشية، وهذا منزع إنساني لا نرتضيه"[44].

عموما فقد أصبحت النزعة الإنسانية في القرن العشرين أعم وأشمل، واهتمت بالإنسانية جمعاء بغض النظر عن أصولها ودياناتها، واستفادت من الثورة المعرفية في ترقية الطبيعة الإنسانية وتكامل وحدتها والاهتمام بالتفكير الإنساني والوجداني وتفاعله مع البيئة، وأعطي الإنسان قدرة على تحقيق ذاته وحل مشكلاته، والتعاون مع الآخرين لتحقيق الحياة الأفضل

[42]- لوك فيري، تعلم الحياة: سأروي لك تاريخ الفلسفة، ترجمة سعيد الولي، منشورات كلمة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2011، ص. 172.

[43] -Idem, p 37.

[44] -Jean Paul Sartre, l'existentialisme est un humanisme, Gallimard, Paris, 1996, p. 75.

لبني البشر في إطار من الديمقراطية وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية والحرية والحياة السعيدة الآمنة لصالح الجنس البشري كله...[45].

دون أن يعني ذلك القضاء التام على مختلف أشكال اللاإنسانية، فقد اشتدت الحروب والنزاعات مبطلة الدعاوي المثالية، وهو ما أدى بالعديد من المفكرين إلى طرح مقومات إنسانية القرن الواحد والعشرين على شكل برنامج عمل مستقبلي يراعي ما يلي:

- **ضرورة إعادة النظر في إنسانية النهضة والحداثة: النقد المستمر**، فقد اتضح أن ما يتشارك فيه بنو البشر، لا يكمن في عقل واحد، ولا يمكن اكتشافه من خلاله، ومن غير الممكن التمسك به، بل ينبغي أن يخضع لتحليل نقدي صارم[46].

- **الإنسانية الجديدة تعترف بواقع التعدد الحضاري** وتنبذ التطرف والاستعلاء على أسس الاختلاف الثقافي؛ فالرؤية الحداثية للإنسانية تعد إمكانية ثقافية تنتصب إلى جانب الممكنات الثقافية الأخرى. يلزم عن ذلك ضرورة المساواة بين الثقافات واحترامها، لأن "التنوع الثقافي" هو التعبير الأسمى عن "وحدة الجنس البشري".

- **الإنسانية الجديدة تحترم حقوق المرأة والأمومة وتنبذ التعديلات الجينية.**

- **الإنسانية الجديدة تتطلب تعزيز المساعدة الإنسانية ووجود تشريعات دولية.**

- **الإنسانية الجديدة لا تؤله الإنسان ولا تجعله مركز الكون**، فإنسية القرن الواحد والعشرين ليست نزعة تأليهية للإنسان، فلا حلول للإلهي في أفعال الناس، وهنا تذكر كريستيفا بالمحرقة النازية ومعتقلات الكولاغ الستالينية[47].

انطلاقا من النزعات الإنسانية الكلاسيكية والحديثة والمعاصرة، ونظرا للاختلافات الكامنة فيما بينها بشأن رؤية الإنسان والعالم، يبدو السؤال الآتي مشروعا: أي هذه النزعات كان لها عظيم التأثير على القانون الدولي؟

المطلب الثاني: الإنسانية والقانون الدولي: مسارات المفهوم

لقد قدم الفكر الفلسفي على مر تاريخه فرشا نظريا يمتح منه تنظيم الحياة الاجتماعية عن طريق القانون. غير أن تباين المقاربات الفلسفية المقدمة بخصوص الإنسانية جعل العلاقة بينها وبين القانون لا تستقر على حال واحدة؛ فطالما نظر إلى أن القانون حرفي وضيق وأحادي الدلالة لا يمكنه أن يستوعب الإنسانية في عمقها وتطورها. يلزم عن ذلك أن القانون لا يمكن أن يتخذ درعا لحماية الإنسانية. غير أن الفلسفة

---

[45]- حصة بنت نغيمش، "الفلسفة الإنسانية"، *مجلة المعرفة*، بتاريخ: 24-01-2016، ينظر الموقع:
< https://short-link.me/ywUe >

[46]- سانجاي سيث، "النزعة الإنسانية، إلى أين؟"، في"النزعة الإنسانية..."، مرجع سابق، ص. 9.

[47]-جوليا كريستيفا، "عشرة مبادئ من أجل إنسية للقرن الحادي والعشرين"، تقديم وترجمة نجاة النرسي، *مؤسسة مؤمنون بلا حدود*، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية، 30 يوليوز 2016، ص.6-7.
https://www.mominoun.com/pdf1/2016-06/mabadii.pdf<>(2018/02/19).

الحديثة قدمت إمكانية الجمع بين القانون والإنسانية؛ بحيث يمكن الأول من حماية الثانية، متى استجاب لمجموعة من الشروط والضوابط، وهو ما عجل بميلاد النزعة الإنسانية القانونية؛ فبعدما كانت الإنسانية والقانون مفهومين متعارضين (الفرع الأول)، أصبح بينهما الكثير من التوافق لدى كثير من رواد النزعة الإنسانية ذوي التكوين القانوني (الفرع الثاني).

الفرع الأول: الإنسانية والقانون مبدآن متعارضان

إن الإنسانية كتيار فكري كان يقوم في عصر النهضة على العودة للنصوص القديمة، وهو ما هم أيضا النصوص القانونية، غير أن اللقاء بينهما أول الأمر كان صراعيا لأن "روح الإنسانية" مفارقة "لجسد القانون"، الذي قد يتخذ كوسيلة لا تنضبط للقواعد الأخلاقية والإنسانية.

كان اللقاء في بدايته صراعيا بين المذاهب الإنسانية الأدبية والفكر القانوني؛ فقد تم تبني العودة إلى القانون الروماني في فرنسا من قبل الإنسانيين ذوي التكوين القانوني؛ فبالنسبة للفيلسوف والمؤرخ ميشال فيلي Michel Villey تعتبر العودة إلى القانون الروماني والمذاهب الفقهية القديمة التي أهملتها الثقافة الوسطوية أصل النزعة الإنسانية القانونية في القرن السادس عشر، ورغم ذلك فإنه ينتقد رجال القانون الإنسانيين لكونهم يفتقدون لمعنى التاريخ وروحه[48].

إن القانون الروماني الذي أعيد اكتشافه وبناؤه من طرف قانونيي النهضة عبر بحق عن إنسانية منفتحة على المستقبل بعقلانية المدارس القانونية الحديثة، ممارسا تأثيرا قويا عليها. لكن على مستوى تبرير الممارسات فقد حاول الإنسانيون في عصر النهضة التوفيق بين الكونية والغزوات، وعلى هذا الأساس ثم الدفاع عن الاحتلال باسم "المدنية والتحضر"[49].

منذ لحظة ولادة النزعة الإنسانية القانونية فقد حملت في ثناياها بذور نقائصها، لأنها كانت قبل كل شيء ردا على أزمة الثقة في رجال القانون، في حقبة تم فيها اختزال علم القانون، إلى معرفة حرفية ضيقة؛ ففي إيطاليا مثلا توجب على رجال القانون مواجهة الخطابات الإنسانية المضادة لمنهجية ولتدريس القانون، وهو ما يفسر الالتباس الأصيل للإنسانية القانونية، والتي طبعت أولا بالعودة إلى القانون الروماني ما فتح السبيل لفكر قانوني أكثر عقلانية، وفي نفس الوقت فقد حمل الطموح نحو الكونية والعالمية[50]. وازدادت هذه المفارقة عمقا بعدما لاحت داخل الأفق النهضوي تنظيرات سياسية تدافع عن جعل القانون أداة لخدمة الأمراء لا الإنسان.

إن الجمع بين "الإنسانية" و"القانون" داخل مفهوم واحد لم يكن أبدا مسألة سهلة ولا

[48]- Mireille Delmas-Marty, "l'humanisme juridique entre mythe et utopie", Op.Cit, p.1-5

[49]- Ibidem.

[50]- Ibidem.

مقبولة، ذلك أنه في معظم الحضارات لم يكن للإنسانية سوى روابط هشة مع القانون[51]، فقد ظل الأخير أداة لخدمة السلطة بعيدا عن الإنسانية؛ فقد كان الكونفوشيوسيون ورجال القانون على طرفي نقيض من هذه المسألة، حيث لم يفكر المدافعون عن الكونفوشيوسية في القانون كحام للإنسانية[52].

يتضح هذا التوجه أكثر مع ميكيافيل الناصح للأمير بأن يجعل "القانون" عضده إلى جانب "القوة"، فحيث توجد أسلحة قوية توجد قوانين جيدة[53]. وقد توصل إلى أن الأخلاق الإنسانية (مبدأ حسن النية والتعاون والتضامن...) لم تشكل سوى شعار ووسيلة استعملها الدهاة من الأسياد والقادة حيلا للاستزادة في المكاسب السياسية والاقتصادية، فلا خيار أمام "الأمير الناجح" سوى التملص من القوانين و"نكث" العهود و"استباحة" أراضي الأغيار متى أنس في جيشه "قوة صلبة" على الفعل، وإلا استخدم القانون "كحيلة" حتى يسلم من طغيان الأقوياء، ومتى فشل في اختيار الوقت المناسب لاستخدام أحدهما دون الآخر فقد سلطانه وقوته واستصغره عدوه[54].

ليست الدول في علاقتها ببعضها من تجعل القانون "منزوع الإنسانية" وأداة لتحقيق الغلبة، بل حتى الأمير في علاقته بشعبه ينبغي أن يستخدم القوة والحيلة معا لفرض سلطته وقمع متمردي الداخل، ليس لأن الحاكم مستبد وشرير ولكنه يعامل الناس "بحسب طبيعتهم"، فالملاحظات الواقعية تفيد بأن الناس يسلكون تارة بمنطق القوة، وتارة أخرى عن طريق الحيلة، وهما صفتان حيوانيتان. يلزم عن ذلك أن يكون الحاكم أشدهم بأسا وقوة، وأكثرهم مكرا وحيلة، من هنا جاءت استعارة الثعلب والأسد الشهيرتان. لا شيء يمنع الحاكم إذن من استخدام الإنسانية والأخلاق، لكن ليستا كغاية بل وسيلة لتحقيق المصالح[55].

يرى الأستاذ محمد بنونة بأن هوبس سار على نفس المنوال، فبعد أن بدأ الناس يقلقون على حماية الشخصية الإنسانية، توجه إليهم بالنصح الشديد بأن ينصرفوا عوض ذلك إلى حقوق الدولة والوقوف في كنفها، فقد تمكن من إقناع الكثيرين من القبول بخضوع "لا حدود له للسلطة وخدامها مقابل الأمن للجميع"، بعدما استبد بهم الخوف من بعضهم البعض بما هم في الطبيعة ذئاب[56].

وإذا كان منطقيا قبول "عقد هوبس الأول" الذي يتنازل الناس بموجبه بشكل متبادل عن مطلق حريتهم ليحققوا ركائز الاجتماع السياسي

---

[51]- Ibidem.

[52]- صبحي جديدي، الفلسفة الإغريقية، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، الطبعة الأولى 2009، ص. 40-54.

[53]-نيكولومكيافيلي، كتاب الأمير، ترجمة أكرم مومن، دار العلم والمعرفة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2018، ص-ص.64-65.

[54]-المرجع نفسه، ص-ص.39-59.

[55]- المرجع نفسه، ص-ص.91-93.

[56]- محمد بنونة، "حقوق الإنسان والسلم المدني"، في: المجتمع الدولي وحقوق الشخصية الإنسانية، محمد بنونة وآخرون، ترجمة فاطمة الزهراء أزريول، اليوم الدراسي المنعقد بتاريخ 7 فبراير 2000، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 2001، ص ص.29-37، ص.30.

المشترك، بعيدا عن رقابة الكنيسة وطغيان "النوازع الفطرية"، فإن "العقد الثاني" محط نقاش لأنه يضطر الناس إلى التنازل مرة ثانية، لكن ليس لبعضهم البعض بل لطرف ثان يتولى مهام الحكم[57]. لا يكون "السيد/التنين" طرفا في العقد لأنه "حارسه من خارج"، فيحق له تحت ذريعة السلم والأمن الاجتماعي قمع المتمردين والمجادلين لسلطانه، وسن القوانين اللازمة لذلك، ومهما استبد فلا يجوز للناس الخروج عنه، إلا إذا تقوض السلم بينهم وغاب الأمن وساد القلق على النفس والمال[58].

لا غرو إذن أن يرى واحد من "إنسانيي الحداثة" (روسو) بأن هوبس "داعية استبداد"؛ فمن يتنازل عن حقوقه ويخضع لسلطة مطلقة يكون في وضع الذي يتفادى الأذى الذي قد تلحقه به الذئاب أو الثعالب، ويختار راضيا أن تفترسه الأسود، معتبرا أن في ذلك سلامته[59]. فيغدو جسد الحاكم مصانا، وأجساد الرعية مستباحة[60]. إن القوي بهذا المعنى يستعمل سلطة القوانين الرهيبة كسلاح ضد الضعيف، وهو ما حاول إنسانيو الحداثة تجاوزه عبر الجمع بين فكرة "الحق الطبيعي" و"القانون الاتفاقي".

الفرع الثاني: التوفيق بين الإنسانية والقانون

رغم كل الاعتراضات عن الجمع بين "الإنسانية" و"القانون"؛ سواء بالنظر إلى تعارض الخطابات الفكرية أو بسبب الحروب والمآسي التي عرفتها عصور النهضة، والتي كانت على أيدي بعض "المتشبعين بالإنسانية"، رغم ذلك، فإن اللحظة الحديثة تعد بحق لحظة التوفيق بين الإنسانية والقانون، في إطار "النزعة الإنسانية القانونية". من بين الأسس التي تشكل سندا لمنظومة حقوق الإنسان، نجد النزعة الإنسانية القانونية، وهذه الأخيرة تؤسس لتصور الإنسان "كفاعل قانوني" أي كصاحب حق sujet de droit، و"كفاعل سياسي"، أي كمواطن تشريعي، سواء تعلق الأمر بالذات الفردية أو بالذات الجماعية (الشعب)[61]. إن المزاوجة بين "القانون الطبيعي" و"القانون الوضعي" هي التي سمحت بالاعتراف بالإنسانية القانونية، ومن ثمة قيل: "إن حقوق الإنسان هي حقوق طبيعية، تماما مثلما أن القوانين الطبيعية هي حقوق طبيعية للكون، أي قوانينه"[62].

إن الأنظمة القانونية المصنفة بكونها إنسانية، نشأت خارج الجامعات، سواء بالنسبة لبودان في فرنسا أو بالنسبة للهولندي هوغو غروتيوس،

---

[57]- محمد عابد الجابري، في نقد الحاجة إلى الإصلاح، مرجع سابق، ص.109.

[58]- عبد الرحمان بدوي، فلسفة القانون والسياسة عند هيجل، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1996.، ص.163.

[59]- جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، تقديم وتعليق وترجمة عبد السلام الشدادي، مركز الأزمنة الحديثة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 2013، مرجع سابق، ص.124.

[60]- زيجمونت باومان، الحب السائل: عن هشاشة الروابط الإنسانية، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2016، ص.130.

[61]- محمد سبيلا، "الفلسفة الحديثة ومفهوم حقوق الإنسان"، *مجلة مدارات فلسفية*، العدد 5، 2008، ص. 64.

[62]- محمد عابد الجابري، في نقد الحاجة إلى الإصلاح، مرجع سابق، ص.139.

مجلة القانون و المجتمع
العدد 12، السنة الرابعة، الفصل الأول سنة 2024
ردمد : 8152 – 2737
معهد الدراسات الاجتماعية و الاعلامية

صاحب مؤلف "قانون الحرب والسلام" (1625)، الذي وضع النظام الأكثر اكتمالا "لكل مواد القانون"؛ فلم يقتصر على الحروب بين الدول، بل ضم أيضا القانون الداخلي، من ثمة أثر بشكل قوي على العصور اللاحقة، إلى درجة دفعت ميشيل فيلي إلى اعتباره: "أمير العلم القانوني المعاصر"[63]، والرائد الأول في ميدان "فقه القانون الطبيعي". لقد وضع الأساس الراسخ للقانون الطبيعي وللقانون الدولي؛ فبدون الإقرار بوجود قانون طبيعي يفرض نفسه على جميع الناس، لا يمكن وضع قانون دولي شامل للدول والأديان المختلفة، وميزته الرئيسية هي أنه "لا يقيم القانون الطبيعي على المبادئ المجردة كما فعل فلاسفة التعاقد الاجتماعي، بل اعتمد على التجربة الإنسانية كما عبرت عنها النقول اللاهوتية والإنسانية والرومانية والتاريخية[64].**وهو ما يعني بأن وضع قانون للإنسانية جمعاء ليس فقط تأسيسا فلسفيا مثاليا كما هو الشأن لدى كانط، لكنه مستقى من القيم المشتركة بين كل شعوب العالم.**

سيرا على نهج غروتيوس، تطور "فقه القانون الطبيعي" الذي ترعرعت في كنفه "العقلانية والإنسانية" في ظل "القانون الدولي الكلاسيكي"؛ فتم تبني هذا الاتجاه من طرف "القوى الأوروبية"، وتم اعتماده أيضا من طرف رجال قانون مثل بيفوندورف Samuel Von Pufendorf[65] وولف Wolf وبشكل متأخر مع فاتيل Vattel[66].

استلهمت "النزعة الإنسانية القانونية" في عصر الأنوار، ليس فقط مع الإعلانيين الأمريكي والفرنسي لحقوق الإنسان، ولكن أيضا مع إصدار كانط "لمشروع السلام الدائم"، المبني على ثلاثية: "القانون المدني"(الوطني)، و"قانون الشعوب"(القانون الدولي) و"القانون الكوسموسياسي" (cosmopolitique) أو "الفوق دولي" (supranational)[67].

تطور "قانون الشعوب" باتجاه قانون خاص بأوروبا، بينما "كونية" المبدأ ستصطدم "بإمبريالية" (بتعبير ماركس) الممارسات الدولية المنافية "للإنسانية الكونية والعقلانية"، رغم ذلك فالإيمان بها لم يتراجع، ولكن تم إعادة إخراجه في صيغة "قانون نظري" أو "القانون كما ينبغي أن يكون"[68]. هكذا فالإنسانية كمفهوم، لم تحظ باهتمام الفلاسفة والمؤرخين، ولم تجلب اهتمام "المثاليين" سوى في العصور الحديثة، أو لنقل أنها "دخلت التاريخ" في هذه الحقبة[69].

---

[63]- Mireille Delmas-Marty, "l'humanisme juridique entre mythe et utopie",< https://short-link.me/ywUz >, p.3.

[64]- عبد الرحمان بدوي، امانويل كانط- فلسفة القانون والسياسة، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، 1979، ص.10.

[65]- محمد عابد الجابري، في نقد الحاجة إلى الإصلاح، مرجع سابق، ص-ص.116-117.

[66]- Mireille Delmas-Marty,Op.Cit,p.3.

[67]- عبد الرحمان بدوي، امانويل كانط- فلسفة القانون والسياسة،مرجع سابق، ص-ص.5-7.

[68]- Mireille Delmas- Marty,Op.Cit, p.4.

[69]-Florian Aumond, "l'humanité dans l'œuvre de René-Jean-Dupuy", Op.Cit, pp.14-15.

تدريجيا أخذت "النزعة الإنسانية القانونية" في التطور في اتجاهين؛ فانطلاقا من القرن التاسع عشر طمح رجال القانون إلى الكونية؛ فمن "الطبيعة الإنسانية" إلى "الطبيعة المتحضرة" أو من "العقل الإنساني" إلى "الضمير المتحضر"، غير أن بعضهم وجدوا الكلمات لتبرير موجة الاستعمار الأوروبي خلال هذا القرن[70]. بعد ذلك ستعجل مآسي الحرب العالمية الأولى والثانية بتعزيز اتجاه قانوني يتخذ الإنسانية "موضوعا" و"مبدأ" و"ربما شخصا ولو بشكل ضمني"، وهو ما يسمى لدى البعض "بأنسنة القانون الدولي المعاصر"[71]، أو "القانون الدولي للجنس البشري"(للإنسانية)[72].

[70]- Mireille Delmas- Marty,Op.Cit, p.5.

[71]- Theodor Meron, The Humanization of International Law, The Hague Academy of International Law, MartinusNijhoufPublishers, Leiden, Boston, 2006, p.7.

[72]- Antônio Augusto Cançado Trindade, International Law for Humankind - Towards a New Jus Gentium, The Hague Academy of International Law Monographs,Op.Cit, p.28.

لائحة المراجع

بالعربية

ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1998.

أحمد الطريبق، نقد فلسفة الحداثة عند مشيل فوكو، الجزء الثاني: نقد النزعة الإنسانية،أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2015.

أفلاطون، الجمهورية، ترجمة فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2004.

أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني، تعريب خليل أحمد خليل، إشراف أحمد عويدات، منشورات عويدات، باريس، الطبعة الثانية، 2001.

ايرينا بوكوفا، "افتتاحية"، في "النزعة الإنسانية، فكر متجدد دائما"، *مجلة رسالة اليونيسكو*، العدد الرابع، أكتوبر- دجنبر 2011.

إيمانويل كانط، ماهي الأنوار؟ ترجمة حميد لشهب <ما-هي-الأنوار؟-إيمانويل-كانط-ترجمة-حم/http://hekmah.org> (تمت زيارته بتاريخ:2015/06/3).

جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، تقديم وتعليق وترجمة عبد السلام الشدادي، مركز الأزمنة الحديثة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 2013.

جبران مسعود، الرائد معجم لغوي عصري، دار الملايين للعلم، بيروت، الطبعة السابعة، 1992.

جوليا كريستيفا، "عشرة مبادئ من أجل إنسية للقرن الحادي والعشرين"، تقديم وترجمة نجاة النرسي، *مؤسسة مؤمنون بلا حدود*، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية، 30 يوليوز 2016.

حصة بنت نغيمش، "الفلسفة الإنسانية"، *مجلة المعرفة*، بتاريخ: 2016-01-24، ينظر الموقع:<https://short-link.me/ywUe>

زيجمونت باومان، الحب السائل: عن هشاشة الروابط الإنسانية، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2016.

سانجاي سيث، "النزعة الإنسانية، إلى أين؟"، في "النزعة الإنسانية، فكر متجدد دائما"، *مجلة رسالة اليونيسكو*، العدد الرابع، أكتوبر- دجنبر 2011.

صالح هاشم، مخاضات الحداثة التنويرية- القطيعة الإبستمولوجية في الفكر والحياة، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2008.

صبحي جديدي، الفلسفة الإغريقية، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، الطبعة الأولى 2009.

طه عبد الرحمان، روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2012.

طه عبد الرحمان، سؤال العمل، بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2012.

عبد الرحمان بدوي، امانويل كانط - فلسفة القانون والسياسة، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، 1979.

عبد الرحمان بدوي، فلسفة القانون والسياسة عند هيجل، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1996.

عبد الرزاق الدواي، "حول إشكالية مصطلح النزعة الإنسانية"، في: "المصطلح في الفلسفة والعلوم الإنسانية" منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 42، الرباط، الطبعة الأولى، 1995.

عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، دون طبعة، دون تاريخ نشر، بيروت، لبنان.

لوك فيري، تعلم الحياة: سأروي لك تاريخ الفلسفة، ترجمة سعيد الولي، منشورات كلمة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2011.

مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، القاهرة، 2004.

محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي: جيل مسكويه والتوحيدي، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2006.

محمد الشيخ، "في طبيعة البشر، المجادلة بين هابرماسوسلوترديك"، في فلسفة الحق عند هابرماس، تنسيق محمد المصباحي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومحاضرات، رقم: 156، الرباط، الطبعة الأولى، 2008.

محمد بنونة، "حقوق الإنسان والسلم المدني"، في: المجتمع الدولي وحقوق الشخصية الإنسانية، محمد بنونة وآخرون، ترجمة فاطمة الزهراء أزريول، اليوم الدراسي المنعقد بتاريخ 7 فبراير 2000، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 2001.

محمد سبيلا، "الفلسفة الحديثة ومفهوم حقوق الإنسان"، *مجلة مدارات فلسفية*، العدد 5، 2008.

محمد سعيد الدقاق، حول مبدأ التراث المشترك للإنسانية: دراسة على ضوء معاهدة الأمم المتحدة لقانون البحار سنة 1982، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1982.

محمد عابد الجابري، في نقد الحاجة إلى الإصلاح، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، شتنبر 2005.

مصطفى حنفي، النزعة الإنسانية وإرث الأنوار، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2014.

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم العربي الأساسي، مطابع أمبريمتو، بيروت، لبنان، 1991.

نيكولومكيافيلي، كتاب الأمير، ترجمة أكرم مومن، دار العلم والمعرفة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2018.

يوسف زيدان، "إعادة بناء مفهوم الإنسانية"، *جريدة المصري اليوم*، عدد 4461، الثلاثاء 30 غشت 2016.

يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني،دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، يناير 2010.

بالأجنبية:

Antônio Augusto Cançado Trindade, International Law for Humankind - Towards a New Jus Gentium, The Hague Academy of International Law Monographs, Volume 6, MartinusNijhoufPublishers, 2010.

Catherine Le Bris, "Le projet de déclaration universelle des droits de l'humanité de 2015: implications et perspectives juridiques", La Revue des droits de l'homme, N°10, 2016.

DELMAS- MARTY, Mireille, l'humanisme juridique entre mythe et utopie,<https://short-link.me/ywUz>

Emanuel Kant, Idée d'une histoire universelle, les textes intégrales de Philo, présentation et commentaires Noëlla Baraquin, Jacqueline Laffitte, N° 30, éd NATHAN, Paris, 1994.

Florian Aumond, "l'humanité dans l'œuvre de René-Jean-Dupuy", Droits fondamentaux, n° 5, janvier-décembre, 2005.

Jean Claude Margolin, l'humanisme au temps de la renaissance, PUF, Paris, 1981.

Jean P. Sartre, l'être et le néant, Gallimard, Paris, 1943.

Jean Paul Sartre, l'existentialisme est un humanisme, Gallimard, Paris, 1996.

Jean Pierre Vernant, Mythe et Société en Grèce Ancienne, François Maspero, Paris, 1974.

Le Centre National des Ressources Textuelles et Lexicales, <http://www.cnrtl.fr/lexicographie/humanit%C3%A9>

Le grand Larousse de la langue Française, <http://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k12005345>

Marie Dominique Le Grand, Lire l'humanisme, Danod, Paris, 1993.

Rémi Brague, Le propre de l'homme: sur une légitimité menacée, Flammarion, Paris, 2013.

Dictionnaires de français, LAROUSSE,<http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/humanit%C3%A9/40625>

Robin Coupland, "Humanity: what is it and how doesit influence international law?", International Review of the Red Cross, Vol.83,N°844, December2001.

Theodor Meron, The Humanization of International Law, The Hague Academy of International Law, MartinusNijhoufPublishers, Leiden, Boston, 2006.